صورة أهل الشمال
في الأدب الجغرافي العربي القديم

د. عبدالله إبراهيم
قسم اللغة العربية - كلية الإنسانيات - جامعة قطر

يبدو الشمال غامضًا ومخيفًا في أعين المسلمين، طوال العصر العباسي وما بعده، ولم تكن قد توافرت لهم معلومات متكاملة عنه، ولهذا فقد قاموا هم أنفسهم بتشكيل صورته في أذهانهم بناء على مصادر كثيرة، منها جهود الجغرافيّين والرحالة، والعلاقات المباشرة بسبب الجوار والتجارة وغير ذلك، وتشكّلت ملامح تلك الصورة الغامضة، والمشوبة أحيانا بنوع من الخوف بسبب الصراع العقدي الذي كان ناشبا بين دار الإسلام وكثير من الممالك الشمالية، وفي مقدمتها بلاد الروم وبلاد الفرنجة، وممالك وسط أوروبا، ثم الممالك التي نشأت متتابعة شمال بحر قزوين، وحول البحر الأسود، وحوض نهر (الفولغا) كالصقالبة والخزر والبلغار والباشغرد، وكثير من الأمم التي كانت تعرف طوال القرون الوسطى بالأمم التركية، ويقصد بها تلك القبائل التي اندفعت من وسط آسيا صوب الغرب، وتوغلت في أوروبا، فضلا عن الجرمان والأقوام الإسكندنافية - النورمانية وغيرهم، التي كان لها وجود مهدد للأندلس وحوض البحر المتوسط، والأطراف الشمالية من دار الإسلام، والثغور الأخرى.

ومن المعلوم أن التوتّر العقدي ظل موجهًا أساسيا في طريقة تركيب الصور المتبادلة للشعوب فيما بينها، وكلما شحنت الأجواء بكراهيات الصراع والحروب التي ينتصر فيها هذا الطرف أو ذاك، تتأجج أحقاد في النفوس، فتجد طريقها في توجيه طريقة النظر إلى الآخر، ومن ذلك أن الحروب الصليبية أثرت تأثيرًا بالغ الخطورة في إعادة تعبئة النفوس بالضغائن، وقد أسهمت فيها – كما هو معروف – أغلب الممالك الشمالية المسيحية، وظل التهديد قائمًا لفترة طويلة، واستمر إلى ما بعد الحروب الصليبية، وما بعد إجلاء العرب المسلمين عن الأندلس، فالوجود الإسباني انتعش بعد سقوط الأندلس في حوض المتوسط وشمال إفريقيا، والوجود البرتغالي الاستيطاني في بحر العرب والخليج العربي ظهر بكثافة مثيرة للانتباه في مطلع القرن السادس عشر، وجاب أسطول "دلبوكيرك" تلك الشواطئ، ودمر كل شيء، وأثار ذعرا هائلا بين الأهالي، والسجل الوثائقي الضخم المعتمد لأعمال "دلبوكيرك" في تلك المناطق والهند يكشف ذلك، وقد تأسس وجود مباشر للبرتغاليين في جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الفتوحات الإسلامية في الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، وفتح الأندلس في الجنوب الغربي من أوروبا، ووجود المسلمين في معظم جزر البحر المتوسط، فضلا عن تقدمهم شمال بحر قزوين وحوض البحر الأسود، وسيطرة الأتراك المسلمين فيما بعد على الجزء الشرقي من أوروبا، والاندفاع إلى قلبها. كل ذلك جعل الأقوام المتجاورة من الطرفين تتوجس خيفة من بعضها، وقد ترك ذلك آثارًا مباشرة في رسم صورة الآخر بطريقة مفعمة بالكراهية.

ومع ذلك فلا نعدم استثناءات تنقض سنن الكراهية التي ترسخت لأسباب عقدية وحربية واستيطانية؛ فقد قدّر المسلمون كثيرا شجاعة أهل الشمال في الحروب، ويندر أن نجد بينهم مَنْ يهمل ذلك، وعلى

الرغم من الجراح العميقة التي أحدثتها الحروب الصليبية بين المسلمين والممالك الصليبية، وهي حروب دينية طويلة ومعقدة وذات طابع لاهوتي في بعض مفاصلها، إلا أن التقدير المتبادل للشجاعة الشمالية والتسامح الإسلامي انبثق من وسط أجواء مشرّبة بدم الضحايا، تثبت ذلك الملحوظات المعمّقة التي تركها أسامة بن منقذ حول شجاعة المقاتلين الصليبيين، وبراعتهم في الحروب، وتُثّبتها أيضا المرويات الشعبية الشمالية التي ظهرت في أوروبا حول صلاح الدين الأيوبي. وهذا مجرد مثل يكشف أن التقدير العام لبعض مظاهر السلوك قد يجد طريقه للظهور على الرغم من أجواء التوتر العامة. وعلى العموم فإن الشعوب المستوطنة حول البحر الأبيض المتوسط كانت تتوافر لديها درجة من المعرفة ببعضها؛ لأن البحر كان حلقة اتصال بينها منذ القدم، ولكنها معرفة لم تسمح - كما ينبغي - في تخطّي التصورات السائدة المعبّأة باحتقان ظل يتغذّى طوال القرون الوسطى.

كان التنازع - وما زال - قائما بين قوى صاعدة وأخرى متراجعة تحيط بهذا البحر، من أجل ذلك أدّت العوامل السياسية والتجارية، وتداخل التخوم أحيانا في إبراز الصور المتشكّلة لتلك الشعوب فيما بينها، ولكن كلما توغلنا وسط القارة الأوروبية، واتجهنا شمالا وغربا تضاءلت المعلومات وحلّت الأساطير محلّها؛ بحيث تبدو الأصقاع الشمالية من أوروبا شبه مجهولة طوال القرون الوسطى، ولم تتوافر معلومات مؤكدة وتفصيلية حول الأنظمة الثقافية والدينية والأخلاقية والاقتصادية السائدة هناك، وباستثناء حفنة من الرحّالة كالطرطوشي، وابن فضلان مبعوث المقتدر، وسلام الترجمان مبعوث الواثق، وابن بطوطة، وأبي حامد الغرناطي، وأبي دلف الخزرجي، فإن الجغرافيين المسلمين الذين جمعوا مدونات الرحالة مثل ابن خرداذبة والبكري وياقوت الحموي لم يتعاملوا بعناية مع المعلومات التي جهزها

لهم رحالة أشباه مغامرين، اتصفوا بقوة الملاحظة وشدتها، إلى درجة نلمس فيها حذرا منهم بصورة أو بأخرى، هذا فضلا عن أن بعض مدوناتهم الأصلية تناثرت في المتون الجغرافية. والمثال الأكثر شهرة في هذا السياق الكيفية التي وظف فيها كل من البكري وياقوت النصوص الأصلية لرحلتي الطرطوشي وابن فضلان إلى كثير من البلاد الأوروبية من الشرق حتى الغرب؛ فتلك النصوص خُرّبت، وجرى تقطيعها حسب المناطق التي اهتم بوصفها البكري في "المسالك والممالك" وياقوت في "معجم البلدان" فقُضي على الترابط النصي فيها، وغاب تطور الرؤية، ومُزّق السياق العام لها، وفي الغالب، وبالنظر إلى فقدان النصوص الأصلية الكاملة، فقد جرت الإفادة منها وفق منهجية الجغرافيين، وليس طبقا للأسلوب الذي اعتمده أصحابها.

لقد تشكّك ياقوت في أخبار ابن فضلان بخصوص الصقالبة، وكان يجتزئ معلومات منها بما يخدم غرضه، دون أن يجرؤ على تقديرها فينسبها لصاحبها، وكأنه بذلك يريد التخلّص من مسؤوليتها، فكيف بالأقوام الساكنة إلى الشمال منهم![1]. أما ابن خرداذبة الذي يذكر خبر ذهاب سلام الترجمان إلى بلاد "يأجوج ومأجوج"، فإنه وهو يورد عجائب الرحلة بصيغة السرد المباشر على لسان صاحبها، ويومئ من طرف خفي إلى أنه غير مسؤول عمّا ورد فيها، إذ يقول: "فحدثني سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ثم أملاه عليّ من كتاب كان كتبه للواثق بالله"[2]. إن الطابع العجيب للنص يجعل ابن خرداذبة في وجل من مصداقية مغامرة سلام الترجمان. والبكري في "المسالك والممالك" يستفيد من رحلة الطرطوشي في قلب أوروبا، لكنه ينثرها نثرا في ثنايا كتابه.

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م) ج١/ ٨٨ .

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن، بريل، ١٨٨٩م)، ص ١٧٠ .

وعلى الرغم من ذلك فأخبار أهل الشمال المشوبة بمبالغات الجهل، وأقصد بالتحديد تلك المناطق النائية والمنعزلة، قد غزت كتب الجغرافيّين، وتحولت مع الزمن إلى جملة من الحقائق الذهنية التي يأخذها الخلف عن السلف دون تغيير يذكر؛ فملحوظات سلاّم الترجمان استعيدت فيما بعد عند كثير من الجغرافيين والمؤرخين؛ فابن سعيد المغربي المتأخّر يكرّر المعلومات التي عرفت قبل قرون عدة حول الشمال، ومثال ذلك ما يذكره سلاّم الترجمان عن الأرض الواقعة وراء بلاد الخزر بأنها "أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنّا قد تزودنا قبل دخولها خلاً نشمّه من الرائحة المنكرة"[٣]. وعلى غراره يذهب ابن سعيد واصفًا تلك البلاد بأنها "الأرض المنتنة، لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة، وهي خالية"[٤]. وبينهما طائفة من الجغرافيين المشهورين الذين يوردون المعلومات ذاتها، الأمر الذي يكشف سكون بعض المعلومات وثباتها، وعدم تجدّدها، وقدمها، واعتمادها في الغالب على المرويات الشفهيّة التي تختلط فيها الحقائق بالأكاذيب.

على أن كل هذا لا يقلل بأي شكل من الأشكال من قيمة المشاهدات المباشرة التي تركها الرحّالة، فكثير منها عُدّ من أهم الوثائق عن الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية لكثير من البلاد الشمالية، وسنجد في كثير منها عمقًا وحيوية كبيرين، لكنها تنتظم في سياق عام يمتثل لرؤية المسلمين آنذاك بالنظر إلى الآخر المختلف قيمًا وعقيدة، فقد كانت الأحاسيس مفعمة بالمعتقد الديني الذي يسعى إلى إدراج غير المسلمين في منظومته.

(٣) م. ن. ص ١٦٣ .

(٤) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، المكتب التجاري،١٩٧٠م)، ص ٢٠٧ .

يرتسم الشمال في أذهان القدماء بوصفه "بلاد الظلام" كما يقول ابن بطوطة(٥).

وهذا الوصف القائم على حكم اختزالي واضح يخفض من أهمية هذه المناطق، ويجعل الشمال ملتبسًا، معتما، بسبب قلة المعلومات حوله. ويحسن أن نستعين مرة ثانية بابن سعيد الذي يجمع من موارد سابقة، فما أن يصل بحديثه إلى الجزء السادس من الإقليم الشمالي الذي يكون نهر "أتل" (الفولغا) في جزئه الجنوبي، إلا وتحلّ الأحكام محل الأوصاف، فسكان الأجزاء العليا "هم من أجناس الأتراك، ولهم اعتناء بالنجوم، واشتغال بأحكامها، وهم يعبدونها" وكل المدن الواقعة هناك "خاملة الأسماء".

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم حيث جبل "البجناك" توجد "أمة من الترك يحرقون أنفسهم، ويحرقون من وقع إليهم"، وإلى الشرق تظهر الأرض المنتنة التي يسكنها "كفّار لا يدل إليهم أحد إلا قتلوه"، ثم يأتي الجزء التاسع وهو "الأرض المحفورة"، وهي "مسكونة بقوم لا يقدرون على الصعود، ولا يستطيع أحد النزول إليهم لبعد عمقها"، وينتهي شمال الأرض بالجزء العاشر و"جميعه داخل في بلاد يأجوج ومأجوج وآخره المحيط بالشرق"(٦).

تغيب المعلومة وينشط التخيّل، والملحوظة التي لا تغيب أبدًا هي: كلما نأت المناطق عن قلب دار الإسلام سقطت في عتمة خاصة بها، فيغيب التمايز، وتنعدم الخصوصيات، وتدور الأحكام في حلقة مغلقة.

يَجمَع الجغرافيين المسلمين فيما يخص الشمال أمرٌ واحدٌ، هو الحديث عن بلاد "يأجوج ومأجوج"، وباستثناء سلام الترجمان، فلا

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، شرح طلال حرب (بيروت، دار الكتب العالمية، ١٩٩٢م)، ص ٣٥٠ .

(٦) كتاب الجغرافيا، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

أحد ادّعى الوصول إليها[٧]، حتى إن ابن بطوطة حينما وصل في الصين إلى مدينة الزيتون (شوان شوفو) ثم عبرها شمالاً إلى مدينة "صين كلان" التي هي آخر مدينة بلغها في رحلته، توقف قبل أن يعود أدراجه ويقول: "ليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين، وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يومًا، فيما ذكر لي، يسكنها كفّار رحّالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم، ولذلك لا تسلك بلادهم، ولا يسافر إليها، ولم أر بتلك البلاد من رأى السد المذكور، ولا من رأى من رآه"[٨].

هذه المدينة يسكنها كفّار رحّالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم

ويحسن بنا أن نرى كيف تترتّب المعلومات حول الأقوام الشمالية، وذلك لا يتم إلا من خلال تضييد المعلومات التي ترسم لنا مسارًا متصاعدا يبدأ بأقرب البلاد المتاخمة لدار الإسلام، ثم ينتهي بنا في فيافي الثلج؛ إذ تنال الشعوب القريبة نوعًا من الاهتمام، من ذلك بلاد الروم، وهي الجار المتاخم المرتبط دائما بعلاقة متوترة مع دار الإسلام. إذ يقول المسعودي عن أهلها: "ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين، وبرهة من مملكة الروم، تعظّم العلماء، وتشرّف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس، والتعاليم الأربعة، أعني: الإرتماطيقي وهو علم الأعداد، والجومطريقي وهو علم المساحة والهندسة، والإسترنوميا وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون. ولم تزل العلوم قائمة السوق، مشرقة الأقطار قوية المعالم، شديدة المقاوم، سامية البناء، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم، فعفوا معالم الحكمة،

(٧) فيما يخص الحديث عن يأجوج ومأجوج. انظر على سبيل المثال: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٦٣ - ١٧٠ . والإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٨٤٦ وما بعدها، ورسالة ابن فضلان، ص ٧٠. وياقوت الحموي، معجم البلدان ج ١/ ٨٧ - ٨٨ ، وابن حوقل: صورة الأرض ج١/ ١٥ . والإصطخري، مسالك الممالك، ص ٩ ، وابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ٢٠٨.

(٨) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .

وأزالوا رسمها، ومحوا سبلها، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته"(٩).

يقدّم المسعودي وصفا وتفسيرا وحكما في آن واحد؛ أما الوصف فمداره نظرة تقدير للثقافة اليونانية التي تنوعت بين الرياضيات والهندسة والفلك والموسيقى، وغيرها مثل الفلسفة والآداب، وكل ذلك كان موضوع معرفة المسلمين في القرن الرابع الذي كتب فيه المسعودي هذا الوصف. والحق أن الثقافة الإسلامية، والعربية منها بوجه خاص، احتفت بالمكوّن الثقافي اليوناني، وتطلّعت إلى معرفته قبل زمن المسعودي، وتُرجمت إلى العربية كثير من النماذج الممثلة لذلك المكوّن في مجال الجغرافيا والفلسفة والعلوم، أمّا تفسير ذلك فالمسعودي يعزو ذبول الثقافة اليونانية إلى ظهور المسيحية التي أعادت النظر في المورث اليوناني، وحالت دون أن يكون منافسًا لها، وهذا التفسير على غاية من الأهمية ليس فقط لأن المسعودي يقول به، إنما لأنه يطابق الواقع التاريخي؛ فقد نظر اللاهوت المسيحي بعمومه إلى ذلك المورث بوصفه وثنيا، وجرت محاربته تحت دعاوى دينية، ومع أن بعض كبار اللاهوتيين مثل القديس أغسطين قد حاول الإفادة ضمنا من المورث اليوناني في صنع لاهوت كنسي، لكنّ ذلك اللاهوت - بما فيه الجانب الذي يُعرف بالفلسفة المسيحية - عارض القيم الكبرى التي أشاعتها الثقافة اليونانية، ودمغها بالوثنية. والمسعودي لا يظهر انقطاعا عن روح السجال الديني المسيحي الذي قام بتصفية من نوع ما لمورث الإغريق، إنما هو على دراية بذلك. وبعد كل هذا يأتي دور الأحكام .

الحكم الذي يترشح من ثنايا الوصف والتفسير يتصل بالتفريق الواضح بين أصل كبير وسامٍ، وفرع غير بار طمس الآثار المجيدة،

(٩) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت ، دار الفكر،١٩٧٣م) ج ٣٢/١ .

ومحا تلك الحكمة الرفيعة. فوضّع الروم في مقارنة مع اليونانيين الأوائل فيما يخص الجهود الفكرية والعقلية سيضرب صميم الدور الذي قام به الروم، هذا الدور الذي يتلخّص هنا في إزالة الأمجاد الأولى، ومحو سبلها. وأخيرا يضع المسعودي بصمته التي لا تمحى؛ فالنصرانية التي تظاهرت في تلك البلاد هي السبب وراء ذلك، لقد قوضت مجدًا إنسانيا مشتركا. وبالمقارنة فإن الإسلام هو الذي أحيا ذلك الموروث، واحتفى به، في حين أنكرته النصرانية وحاربته. إن دار الروم النصرانية إذن تنكبت عن الوعد اليوناني، وأعرضت عنه، وانحبست في فهم ديني ضيق للماضي والحاضر على حد سواء.

أما حديث المسعودي عن الأقوام الأخرى كالإفرنجة والصقالبة والنوكبرد والأشبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزر وبرجان واللان الجلالقة، فيتضمن تأكيدًا لا خلاف فيه بين أهل البحث والنظر من الشرعيين من أن جميع هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح، وهو الأصغر من ولد نوح. ثم يقدم المسعودي وصفًا لبعض الأقوام: "فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأسًا، وأمنعهم هيبة، وأكثرهم عدَّة، وأوسعهم ملكا، وأكثرهم مدنًا، وأحسنهم نظامًا وانقيادًا لملوكهم، وأكثرهم طاعة؛ إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأسًا، وأعظم منهم نكاية، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة، وكلمة الإفرنجة متفقة على ملك واحد، لا تنازع بينهم في ذلك"(١٠).

نصّ المسعودي هذا يحتاج إلى آخر رديف يضفي عليه دلالته الكلية، سواء ما له علاقة بالروم أو الإفرنج، وليكن ذلك الرديف من القزويني الذي يصف بلاد الإفرنج، فيقول: "إنها مملكة عريضة في بلاد النصارى، بردها شديد جدًا، وهواؤها غليظ لفرط البرد، وهي كثيرة الخيرات والفواكه والغلات، غزيرة الأنهار كثيرة الثمار، ذات زرع وضرع وشجر وعسل، صيودها كثيرة الأنواع. بها معادن الفضة،

(١٠) م. ن ج ٢/ ٣٢١.

وتضرب بها سيوف قطّاعة جدًا. وسيوف إفرنجة أمضى من سيوف الهند، وأهلها نصارى، ولهم ملك ذو بأس، وعدد كثير، وقوة ملك، له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب وسط بلاد الإسلام، وهو يحميها من ذلك الجانب، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها. وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء، ويرون الموت دون ذلك. لا ترى أقذر منهم، وهم أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ لبسوها إلى أن تتقطّع، ويحلقون لحاهم، وإنما تنبت بعد الحلق خشنة مستكرهة(١١).

يطوّر القزويني البنية التي أرساها المسعودي، فهو لا يفسّر كسلفه، إنما يكتفي بالوصف والحكم، وفي الاثنين يذهب إلى أكثر مما ذهب المسعودي إليه، فهو غير مشغول بالمكوّن اليوناني الذي رأينا كيف أن المسعودي خصّه بوصف وتفسير واضحين، إنما الذي يشغله هو قوة الخصوم من الإفرنجة في دار الحرب الذين أشار إليهم المسعودي أنهم مقاتلون ذوو بأس، ولا يعرفون الهزيمة، وقد حال ذلك دون فتح كثير من بلادهم لما يتصفون به من عزيمة شديدة في الحرب، ولهم مملكة واسعة وقوية، وهذا تقدير مناظر لتقدير أسامة بن منقذ لشجاعة الصليبيين، وفي النهاية هو مماثل لتقدير المسعودي لعلوم اليونان؛ فالتقدير متشابه والموضوع مختلف، لكن القزويني يُعنى بوصف واقع الحال في عصره خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وبعد هذه المرحلة تحلّ الأحكام محل الأوصاف، فهؤلاء الإفرنجة - فيما يخصّ القيم والعادات - هم أهل غدر ودناءة أخلاق، وتلحق القذارة والنجاسة بهم بوصفهما يتعارضان مع قيم الطهارة الإسلامية، فتبدأ ثنائية الوصف والحكم تتأرجح، ثم سرعان ما يتغلّب الحكم على الوصف فيما بعد.

(١١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت، دار صادر، ١٩٦٩م)، ص٤٩٨ .

لو أخذنا الطريقة التي يصف بها المسعودي والقزويني أهل الشمال، وتحديدا الروم والإفرنجة لوجدنا أنها تقوم على نوع الثنائية التفاضلية، وهي ثنائية تتدرج في مستويين خاص وعام، ويدخل المكون العقدي في نهاية الأمر ليحسم الأمر لصالح إحداهما على حساب الأخرى؛ فالمسعودي يقارن الجهل الرومي بالمعرفة اليونانية، والقزويني يضع الغدر والدناءة وسوء الأخلاق والقذارة في كفة ميزان، والبسالة الحربية الإفرنجية في الكفة الأخرى. ومن الواضح أن الرجحان سيكون للعنصرين الأولين؛ لأنهما في تصور كل من المسعودي والقزويني هما الموجودان في عالم الروم والإفرنج الآن، وهذا تمزيق لوحدة الصورة، وتخريب لانسجامها العام؛ فما قيمة المعرفة إذا تم التفريط بها واستبد الجهل؟! وما قيمة البسالة إذا عُبّر عنها بالغدر والدناءة؟! وعند هذا الحد تتقوّض قيمة تعد إيجابية، تحت ضغط قيمة أخرى تعد سلبية، بعبارة أخرى: يُنتقص الروم والإفرنجة؛ لأنهم دون الفضائل العقلية والأخلاقية.

هذا هو المستوى الخاص الذي ينظم طرف الثنائيات الضدية في المقارنة، وبعد ذلك يظهر المستوى العام، وهو يتوارى خلف المستوى الأول؛ فالمسلمون هم الذين انتدبوا أنفسهم لإعادة بعث الموروث اليوناني فيما طمسه أحفادهم الروم النصارى، والمسلمون هم المقاتلون الأشداء بلا غدر ولا دناءة ولا سوء أخلاق، هذا لأنهم جعلوا من المعرفة تراثا إنسانيا مشتركا عزيزا، ولأنهم جعلوا من القتال وسيلة للجهاد الذي يتسامى أن يكون غدرا ودناءة. وعلى هذا يتم تمزيق صورة الآخر مرتين: مرة في تضخيم التناقضات الداخلية فيه، ومرة في مقارنته بالمنظومة الثقافية لـ (أنا)، المنظومة التي كان ينظر إليها بعين الرعاية والتبجيل.

ينبغي إيراد البراهين الكافية على هذا النسق من التمثيل لصورة الطرف الآخر، التمثيل الذي يُجري مفاضلة تؤدي إلى تهديم البنى

الأساسية التي تشكّل قوام الآخر. إذ يصف ابن جبير مدينة (مسينة) في جزيرة صقلية، بالصورة الآتية، هي: "موسم تجّار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الإرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقرّ فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغصّ بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعًا بساكنيها، مملوءة نتنا ورجسا، موحشة لا تُوجد لغريب أنسا، أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بإرغاد العَيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان"(١٢).

واضح أن الزيارة السريعة التي قام بها ابن جبير إلى صقلية، وهو في طريقه إلى الأندلس، بعد مشقّة الضياع في البحر المتوسط عائدًا من رحلته المشرقية، قد رسمت له عالما منقسما على نفسه، فيه أمان شخصي لكنّه يعجّ بالاضطراب الروحي والقيمي. ومن المعلوم أن المسلمين في ذلك الوقت يَسِمون غير المسلمين بالكفر، كما هو ظاهر في وصف ابن جبير. وفي نظر رحّالة مسلم كابن جبير لم يقيّض له مثل سلفه ابن فضلان أو خلفه ابن بطوطة أن يختبر مباشرة نسق قيم الآخر عبر المعايشة الطويلة، فإن كفّة المعيار العقدي هي الأثقل، والراجحة دائما.

من الصحيح أن (مسينة) مزدهرة اقتصاديا، والأمن فيها مستتبّ، لكنّها تئنّ تحت وطأة القيم الكافرة، ويصعب إقامة توازن بين الضلال والكفاية الاقتصادية؛ فابن جبير الذي يُحتفى به في صقلية، يدفعه حنين إلى ماضي هذه الجزيرة التي كانت جزءًا من دار الإسلام، وقد بدأ يدبّ فيها الكفر، شأنها في ذلك شأن تخوم دار الإسلام الأخرى في زمنه.

كيف تشتغل ضمنيًا داخل النص آلية المفاضلة؟ يقوم ابن جبير بتنضيد الأوصاف على نحو يدفع دائما بترجيح وصف على حساب

(١٢) ابن جبير، رحلة بن جبير (بيروت، دار صادر)، ص٢٦٦ .

وصف. (مسينة) تتصف من جانب بأنها وكر لتجارة الكفار، وبأنها مظلمة الآفاق بالكفر، ولا مكان فيها لمسلم، تموج بعبدة الصلبان، مملوءة نتنًا ورجسا، موحشة، ليس ثمة أنيس لغريب فيها، ولكنها من جانب آخر كثيرة الإرفاق، أسعارها رخيصة، أسواقها نافقة، أرزاقها واسعة، عيشها رغيد، فيها أمان.

خطاب ابن جبير موجّه للمسلمين، وفيه درجة عالية من الحساسية، فيما يخص الصراع المزمن بين القيم الروحية والقيم المادية، ذلك الصراع الذي حسمت العقيدة الإسلامية النصر فيه لصالح الطرف الأول، وابتذلت الثاني، وعدّته من متاع الحياة الفانية. ومكونات الوصف الذي يقدّمه ابن جبير تستحضر تلك الثنائية، إنه يصور عالمًا منحطّا بضلاله، لا سبيل إلى العيش فيه، فالمسلم فيها غريب الوجه واليد واللسان. يصعب تماما قبول ذلك العالم الذي جرى فيه تواطؤ بين الكفر والرجس. حتى المتع الدنيوية الخاصة بتوفر العيش الرغيد والأمن تتضاءل أمام عالم شبه مغلق على ضلاله، يشعر المؤمن فيه بالوحشة والغربة والفسق، وكما قرر بعض الفقهاء من قبل أن لا أمان لمسلم في دار الحرب. تتقهقر أية قيمة لـ(مسينة) وأهلها من الصقليين.

ويصف الطرطوشي بلد الجلالقة (إقليم الباسك) بأنه سهل جميعه، والغالب على أرضهم الرمل، وأكثر قُوّتِهم الدخن والذُّرة، ومعوّلهم في الأشربة على شراب التفاح والبشكة، وهو شراب يتّخذ من الدقيق. وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطّع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم. وثيابهم أضيق الثياب، وهي منفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم. ولهم بأس شديد، لا يرون الفرار عند اللقاء في الحرب، ويرون الموت دونه. أما البريتانيون (أهل

مقاطعة بريتاني الفرنسية) فلهم لغة تمجّها الأسماع، ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة. ولهم لصوص يقطعون على الإفرنج ويسرقونهم. والإفرنج يصلبونهم إذا ظفروا منهم بأحد. ومن البرتونيين والجلّقيّين والبشاكسة كان حشد "طيطش" إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس(١٣).

يعدّ الطرطوشي شاهد عيان من الدرجة الأولى، وهو من القلائل الذين توغّلوا في غرب أوروبا ووسطها، ثم شرقها، ويرجّح أنه كان يمخر تلك الأصقاع للتجارة، وإن كنّا لا نعلم على وجه التحديد الكيفيّة التي تعامل معها البكري، وهو يورد نبذًا من مشاهداته التي تبدو متقطّعة؛ ذلك أنّ أوصافه وأحكامه تشبه ما سيورده القزويني المتأخّر كما رأينا، الأمر الذي يؤكد ثبات الانطباعات.

عاش الطرطوشي في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ثم زار أوروبا في حدود ٩٦٥م ، وأورد البكري المتوفى عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩٤م مقاطع من رحلته يصعب التحقق من دقتها؛ فالجغرافيون القدماء كانوا يتدخّلون في ترتيب النصوص التي تصل إليهم، ويكيّفونها من أجل أهدافهم، ويكشف المقطع الأخير من نص الطرطوشي الخاص بالحملة الصليبية التي قادها "طيطش" إلى بيت المقدس تدخّل البكري. ولكنّ النص يحافظ على الثنائية التقليدية الشائعة آنذاك، وهي تجاور الوصف والحكم. وهذا الأمر لن يدوم طويلا، فما أن تستبد بالتفكير نظرية الكيوف الطبيعية القائلة بالترابط الوثيق بين الطبائع والمناخ، حتى تدخل بوصفها عنصرًا أساسيا في تحديد نوع الأحكام فيما يخص أهل الشمال.

يقرر الدمشقي المتأثّر بنظرية الكيوف الطبيعية إلى أن الروم، والأرمن، والروس، واللان يُسمّون البيض بشقرة، لإفراط البرد وبُعد

(١٣) البكري، المسالك والممالك، نقلا عن عبد الرحمن الحجي، جغرافية الأندلس وأوروبا (بيروت، دار الإرشاد، ١٩٦٨م)، ص ٨٣ ، ٩٢ .

الشمس، وبسبب ذلك ساءت أخلاقهم، وقستْ قلوبهم، وإنما كانت أبدانهم كذلك لغلبة البرودة والرطوبة واستيلائها، وقلّ من يوجد فيهم له فطنة، بل الحيوانية غالبة عليهم، والشهوة والغضب وحدة النفس. أما أهل المناطق الواقعة إلى الشمال منهم، وهي أكثر بردًا، وهم: الترك، والخزر، والفرنج، وإفرنسة، وكاشغرد (باشغرد)، ومَنْ سامَتَهم فيسمّون الشقر، وألوانهم بيض، وهم كالوحوش لا يعتنون بغير الحروب، والقتال والصيد، ولا يعرفون عرفانا، ولا يفرّقون فرقانا. وإلى الشمال من هؤلاء الصقالبة، وهم على خلق واحد، وطبيعة واحدة، ولا يكادون يفقهون قولاً إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا(١٤).

يتحدث الدمشقي عن أهل الشمال، بوصفهم ثلاثة أجناس من البشر، تتناقص السمات الإنسانية فيهم إلى أن تضمحل في نهاية المطاف. إننا هنا بمواجهة نصوص تختلف في الدرجة عن نصوص المسعودي والقزويني وابن جبير والطرطوشي، فقد كانت تتخلل تلك النصوص مكونات فيها نوع من التكافؤ، لكن السياقات الثقافية تُضعف مكونًا، وتقوي آخر تبعًا للرؤية التي يصدر عنها النص. بيد أننا مع الدمشقي سنكون في وضع مختلف، يعاد تصنيف أهل الشمال إلى جنسين أساسيين، ومجموعة ضالة لا يمكن إدراجها تحت أي اسم:

الجنس الأبيض: وهم الروم، والأرمن، والروس، واللان. وهؤلاء بإطلاق: ساءت أخلاقهم، واتصفوا بقسوة القلوب، ولا فطنة فيهم ولا عقل، ولا يمكن العثور إلا على الحيوانية والشهوة والغضب. وذلك يعود إلى أن البرد قد ضربهم.

الجنس الأشقر: وهم الخزريون، والإفرنج، والفرنسيون،

(١٤) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بغداد، مكتبة المثنى)، ص٢٧٥ .

والباشغرد، وهؤلاء وحوش، لا يعرفون سوى المحاربة والصيد، ولا شرائع لهم، ولا عقائد، لكون البرد قد بالغ في ضربهم.

الصقالبة : وهؤلاء يتعذّر إدراجهم تحت أي اسم، لأنهم كالحيوانات السائبة، بل أضل منها.

أما الدمشقي فهو مصدر ثراء لا ينضب للغرائب، والنظرة الترتيبية للبشر ترجّح لديه كفّة الأحكام، وكما لا يخفى فنصوصه بأجمعها تتحرك في مجال عجيب، وهذا المجال يتدخّل في إضفاء طابع سحري على أوصافه وأحكامه، فالآخر بالنسبة له هو النقيض المأسور ضمن سياج من القيم الناقصة: سوء الأخلاق، وقسوة القلوب، وغياب الفطنة، والحيوانية، والوحشية، والفوضى العمياء التي تطمس الحق، والضلال الذي يفوق ضلال الأنعام. هناك تدرّج متصاعد بالأحكام ينتهي بتبخيس عام.

ليس هذا كل شيء، فالاطّراد في الأحكام يتجاوز كل إمكانية للوقوف قليلا من أجل المراجعة، إذ تأخذ المعلومات طابع الغرابة لمن هم أبعد من ذلك. فابن سعيد المغربي يتحدث عن بلاد البرغار (يرجّح أنها النرويج، حسب بعض الجغرافيين)، وهي آخر ما ينتهي إليه ظهور البحر المحيط، وآخر هذا الجزء بالمشرق، وذلك في نهاية المعمورة في الشمال، وهم أمة عاتية أجهل من الروس، والروس في شرقيهم وفي جنوبيهم. ووجوههم كالكلاب، وذلك دليل على الشجاعة. ويقال: إن الواحد منهم يخرج إلى العسكر ويقاتل وحده حتى يُقتل تهوُّرا وإقدامًا على الموت(١٥)، ثم الروس الذين أشير إليهم أكثر من مرة، وصورتهم بشكل عام معتمة، ومركّبة بنوع من التشويه والانتقاص، إذ يصفهم ابن بطوطة بأنهم: نصارى شقر الشعور، زرق العيون، قباح الصور، أهل غدر(١٦).

(١٥) كتاب الجغرافيا، ص٢٠٢ .

(١٦) ابن بطوطة، ص٣٥٠ .

تتشارك تلك الأقوام في الضلالة، وسوء الأخلاق، والجهل والغدر، والوحشية. وتتقاسم فيما بينها الأحكام، وتفوز بأكثرها قسوة تلك التي تقع في منأى عن المعاينة، ويحيط الجهل بها من كل جانب.

ويتحدّث الجغرافيون عن المناطق الواقعة أقصى شمال الأرض، أي تلك الأرض المسكونة وراء الإقليم السابع (يلحظ نوع من الاضطراب في تحديد المواقع) ومن ذلك جبال "البجناك" التي تقع بين نهري الدانوب والدون، حيث تستوطن أمة من الترك يحرقون أنفسهم ويحرقون من وقع إليهم، وإلى الشرق توجد الأرض المنتنة التي يكتفي الجغرافيون بالقول: إنه لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة، وهي خالية. وفي شماليها بلاد سحر، وهم كفار، لا يدخل إليهم أحد إلا قتلوه[١٧].

بين نهري الدانوب والدون تستوطن أمة يحرقون أنفسهم ويحرقون من وقع إليهم!

هذا السياق المتصاعد من الأحكام يتناغم مع درجة البعد عن دار الإسلام؛ فالجهل يوفّر درجة عالية من البغض، ويوجّه الأفكار بخصوص الآخر وجهة تتخطّى إمكان تقويم وتقبّل المنظومات الثقافية والقيمية له.

تحتاج صورة أهل الشمال إلى تقصّيات تفصيليّة تبيّن التضاريس الداخلية لطبيعة الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وهذه التقصّيات التفصيلية سوف تدعم الصورة العامة التي عرضنا لها قبل قليل.

تلك التقصيات استأثرت بها الأقوام الشمالية في أعالي السهوب الأوروبية التي كانت مسرحا لأقوام كثيرة خلال القرون الوسطى، نقول: إنها أقوام تجوزا مجاراة للجغرافيين القدامى، وهم قبائل كثيرة نازحة من شمالي آسيا باتجاه شمال وشرق أوروبا، كانت تعرف

(١٧) كتاب الجغرافيا، ص٢٠٧ .

بالقبائل التركية. نجحت في تأسيس كيانات سياسية كانت تقوم وتنهار بسرعة بالغة.

يقدّم المسعودي بعض التفاصيل عن تلك الأقوام التي تستوطن بين شمال البحر المتوسط وجبل القبخ (القبق) الذي يقع بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى الشمال من أرمينيا، وهي أوروبا الشرقية، حيث توجد أمة مطيعة منقادة إلى دين المجوسية، ويقول: إنه ليس بين الأمم في هذا الصقع أنقى أبشارًا، ولا أصفى ألوانًا، ولا أحسن رجالاً، ولا أصبح نساء، ولا أقوم قدودًا، ولا أدق أخصارًا، ولا أظهر أكفالاً وأردافًا، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة، ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات، ولباسهم البياض والديباج الرومي والسقلاطوني وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب، وبأرضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب، فيها نوع يقال له الطلى، أرق من الدبيقي وأبقى على الكَدِّ، يبلغ الثوب عشرة دنانير، ويحمل إلى ما يليهم من الإسلام، وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم، إلا أن الموصوف منها ما يُحمل من قبل هؤلاء[١٨] .

تبدأ ملحوظات المسعودي من الواقع المادي: الجمال، وبالتحديد النساء اللواتي يكنّ مثار رغبة خاصة ، ثم تجارة الملابس، ولكن سرعان ما يستبدل المسعودي بالوصف الأحكام في لهجة مختلفة وغير معهودة منه حين يتطرّق بحديثه إلى الأمم والأقوام الأخرى، ومنها: السبع بلدان، وهي أمة كبيرة ممتنعة، بعيدة الدار لا أعلمُ ملّتها، ولا نمي إليّ خبر في دينها. وتليها أمة عظيمة يقال لها: إرم ذات العماد، وهم ذوو خلق عجيب، وآراؤها جاهلية.

ولهذا البلد الواقع على البحر خبر ظريف، وذلك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها، ثم تعود ثانية فتتوجّه نحوهم من

(١٨) مروج الذهب ج ١/ ١٧٧ .

الشق الآخر فيتناولون منها، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أُخذ منه أولا، وخبر هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار .

ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة، كل جبل منها ممتنع ذاهب في الهواء، وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء، وفي وسط تلك الصحراء دارة مقوّرة كأنها قد خُطت ببيكار، وشكل دائرتها خَسَفةٌ مجوّفة في حَجَر صَلْد منخسف، كما تدور الدائرة، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا، وقطع قائم يهوي سفلا كحائط مبني من سفل إلى علو، يكون قعره على نحو من ميلين، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة، ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، وبالنهار يُرى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى، وناس وبهائم، إلا أنهم يُرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع، لا يدرى من أي الأمم هم، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات، ولا سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه.

ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر، فيها آجام وغياض، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم، إلا أنهم ذوو شعر، وربما وقع في النادر القرد منها إذا احتيل في اصطياده؛ فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا أنه لا لسان له فيعبر بالنطق ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة، وربما حُمل الواحد منها إلى ملوك الأمم من هناك، فتعلمه القيام على رؤوسها بالمذابِّ على موائدها لما في القرد من الخاصة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب، ويُلقي الملك له من طعامه فإن أكله أكل الملك منه، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه، وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند في القردة[١٩].

(١٩) م. ن. ص١٨٧ .

يتحدّث المسعودي بثقة عن خمس من الأمم دون أن يذكر أسماءها، إلا واحدة على سبيل التخمين: الأمة المجوسية التي شغل بجمال نسائها، ثم أخرى مجهولة لا يعرف دينها، وأمة يقال لها: إرم ذات العماد، وأهلها ذوو خلق عجيب، وآراؤهم جاهلية، ثم أمة بين جبال أربعة، وأخيرا أمة مهجّنة من القرود والبشر، تستأثر باهتمامه. وبالمقابل يتجرّأ المسعودي على وصف طراز حياة هذه الأمم، وبعض تقاليدها، وأنماط المعيشة فيها، ويقدم تفصيلات مسهبة عنها.

إن الإحجام عن التسمية لا يأتي عن جهل إنما عن قصد، فليس من الممكن معرفة كل تلك التفاصيل الدقيقة مع جهل تام بأقوامها. إن تنكير الأمم المذكورة، وحجب التسمية عنها يراد به طمس حضورها؛ فالتسمية بحد ذاتها تضفي قيمة في هذا السياق، سياق التعريف بالآخر، وهي في الفكر القديم والوسيط تشكل حضورا قويا؛ فتسمية الشيء يعني حضوره، فلا وعي المسعودي، وكذلك القزويني، والدمشقي، وغيرهم يختزل الآخر إلى كتلتين: إما أقوام معرّفة بالاسم لكنها تتشارك بخليط موحد من الخصائص الدونية، كما رأينا مع الدمشقي، وإما أقوام تنتقص في أسمائها، مع إفاضة واضحة في أعرافها وتقاليدها وحياتها. وفي الحالتين تظل تلك الأقوام محجوبة وراء حكم قيمة لم يؤهل بعد ليكون منصفا.

يلحظ أن الأحكام تتردد بين الذم الذي يتخلله تقريظ خفيف، وهو أمر نجده في الأدبيات الجغرافية. والمسعودي، وهو أكثر من غيره معرفة بالشعوب الواقعة خارج دار الإسلام يتردّد بين أسلوبين في معالجة مسألة الآخر: أسلوب وصفي مرّ بنا حينما أوردنا وصفه للروم، وفيه يحاول أن يقدّم البنية الإثنوغرافية للمجتمعات خارج دار الإسلام. وأسلوب الحكم القائم على المصادرة، ومثاله الواضح الذي وقفنا عليه من قبل في أثناء الحديث عن تقسيم الأقوام الشمالية والأقوام التركية، وهو في هذا الجانب يخضع تمامًا للثقافة السائدة

في عصره. ومع أنه من الصعب تقبّل هذا الازدواج الظاهر لدى كبار الجغرافيين والمؤرخين الإسلاميين، لكن من الواضح أن المنهجية الفكرية المتّسقة مع نفسها في الرؤية والمنهج، لم تكن واضحة في وعي المؤلفين القدامى. تتخلّل كتابات القدماء تناقضات غير قابلة للحلّ إلا إذا عرفنا سرّ التأليف القديم الذي يقوم في أساسه على الجمع أكثر من الابتكار، والأدب الجغرافي في الثقافة العربية - الإسلامية يعدّ مثالاً ممتازا على هذا الأسلوب من التأليف.

هذه الملحوظة التي دفعنا إليها المسعودي لن تنسينا موضوع الأقوام الشمالية الأخرى التي سيتكفّل الدمشقي بتقديم الوصف الآتي لها، وهي: الخرلخية والخرجزية والكيماكية والغزية والبجناكية والطغزغزية والخلخلية والقلجية والغورية. وجميع هذه الأقوام عند الدمشقي أصحاب قلوب قاسية، وطباع جافية، ونفوس عاتية. ومنهم من يسكن المدن، ومنهم من يسكن الجبال والبراري، يتقلّبون مع الزمان في طلب الكلأ والعشب بالخيل والبقر والغنم، ينزلون في بيوت الشعر والخركاوات، وليس لهم عمل غير الصيد، ويأكلون كل طائر وكل وحش، وليس لهم ملة ولا نحلة، وإنما يرجعون إلى رسوم وضعتها ملوكهم(٢٠).

المثير للانتباه هنا، وهو منقصة لا تغتفر عند الدمشقي أن هذه الأقوام لم تكن لها شرائع سماوية، إنما قوانين وضعية تنظّم حياتها. هذه الأقوام يختصر الدمشقي أمرها على نحو لا نتبيّن منه غير الإمعان في الضلال والضياع، ولا تترك تلك الأحكام في التصور العام سوى الأسى على كتل بشرية لم تقترب بعد إلى ضفاف الحقيقة الموجودة في دار الإسلام.

(٢٠) نخبة الدهر، ص٢٦١ .

بدو الشمال هؤلاء الذين أشار الدمشقي إلى بعضهم لهم أشباه كثر في الأقاليم الشمالية العليا، وهؤلاء كانوا مثار انتباه رحّالة متقدّم، يقظ الملحوظة هو أبو دلف (مسعر بن مهلهل)، وهو شاهد عيان متميّز ترك رحلتين: الأولى إلى الصين والهند، والثانية إلى أرمينيا وحوضي البحرين الأسود وقزوين وبلاد فارس، ويرجّح بأنه ولد في سنة ٣٠٠هـ وتوفي سنة ٣٩٠هـ/ ٩١٣- ١٠٠١م، وأوفد إلى الصين حوالي ٣٣١هـ/ ٩٤٣م، ويلحظ أنه اتجه إلى الصين بطريق تمرّ بأقصى الشمال، وفي أثناء مروره قدّم وصفا أخّاذًا ومعمّقًا للمظاهر الاجتماعية والاقتصادية للشعوب التي مرّ بها، كما قدّم التفاصيل شبه الكاملة للمسالك التي تربط شمال آسيا مع الصين حيث تعيش مجموعة كبيرة من الأقوام التركية.

وهذه الرحلة تعدّ من الوثائق المهمة والمبكّرة عن هذه المناطق، وتتصف بالكثافة وقوة الملحوظة، وهي تضفي على النص قيمة خاصة؛ لأنه يُعنى بالأحوال البشرية من حياة ودين وحكم لهذه الأمم.

من الواضح أن أبا دُلف قد اخترق تلك الفيافي القصية الشمالية متجهًا صوب الشرق. وأثارته مظاهر الحياة هناك، ولكن كثيرا من المعلومات القيمة التي تضمنتها رحلته القصيرة والمكثفة التي حرص ياقوت على إدراجها في معجمه، تختنق وسط إطار صارم من الأحكام العقدية والثقافية.

يقول أبو دُلف واصفا مساره: "ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك ، طوال اللحى، أُولو أسبلة، همجٌ، يغير بعضهم على بعض، ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق، يأكلون الدخن فقط. فسرنا فيهم اثني عشر يوما، وأُخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال بلد الصقالبة، ولا يؤدون الخراج إلى أحد ..

ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالجكل يأكلون الشعير والجلبان ولحوم الغنم فقط، ولا يذبحون الإبل، ولا يقتنون البقر، ولا تكون في بلدهم، ولباسهم الصوف والفراء لا يلبسون غيرهما. وفيهم نصارى قليل، وهم صباح الوجوه يتزوج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوسًا، ولكن هذا مذهبهم في النكاح، يعبدون سهيلا وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدي، ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب، وفيهم دعة ولا يرون الشر، وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطّفهم ويطمع فيهم، وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يُطبخ مع اللحم، وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق، ويعملون من الدم والذاذي البري نبيذًا يسكر سكرا شديدا، وبيوتهم من الخشب والعظام، ولا ملك لهم. وقد قطعنا بلدهم في أربعين يوما في أمن وخفض ودعة..

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبغراج لهم أسبلة بغير لحى، يعملون بالسلاح عملا حسنا فرسانا ورجالة، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوي وأنه من ولد يحيى بن زيد، وعنده مصحف مذهّب على ظهره أبيات شعر رثي بها زيد، وهم يعبدون ذلك المصحف، وزيد عندهم ملك العرب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه عندهم إله العرب، لا يملِّكون عليهم أحدا إلا من ولد ذلك العلوي، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم وشخصوا أبصارهم إليها، يقولون: إن إله العرب ينزل منها ويصعد إليها، ومعجزة هؤلاء الذين يملّكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحى، وأنهم قيام الأنوف، عيونهم واسعة، وغذاؤهم الدخن ولحوم الذكران من الضأن، وليس في بلدهم بقر ولا معز، ولباسهم اللبود لا يلبسون غيرها. وقد سرنا بينهم شهرا على خوف ووجل، أدّينا إليهم العشر من كل شيء كان معنا..

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الخرلخ، يأكلون الحمص والعدس، ويعملون الشراب من الدخن، ولا يأكلون اللحم إلا مغموسا بالملح، ويلبسون الصوف، ولهم بيت عبادة في حيطانه صورة متقدمي ملوكهم، والبيت من خشب لا تأكله النار، وهذا الخشب كثير في

بلادهم، والبغي والجور بينهم ظاهر، ويغير بعضهم على بعض، والزنا بينهم كثير غير محظور، وهم أصحاب قمار، يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته وأمه، فما دام في مجلس القمار فللمقمور أن يفادي ويُفك؛ فإذا انصرف القامر فقد حصل له ما قمر به، يبيعه من التجار كما يريد، والجمال والفساد في نسائهم ظاهر، وهم قليلو الغيرة، فتجيء ابنة الرئيس فمن دونه أو امرأته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعرض للوجوه فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها، وأنزلته عندها، وأحسنت إليه، وتصرّف زوجها وأخوها وولدها في حوائجه، ولم يقربها زوجها ما دام من تريده عندها إلا لحاجة يقضيها، ثم تتصرف هي ومَنْ تختاره في أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها لا يغيره ولا ينكره، ولهم عيد يلبسون الديباج، ومن لا يمكنه رقع ثوبَه برقعة منه، ولهم معدن فضة تستخرج بالزيبق، وعندهم شجر يقوم مقام الإهليلج قائم الساق، وإذا طلي عصارته على الأورام الحارة أبرأها لوقتها، ولهم حجر عظيم يعظّمونه ويحتكمون عنده، ويذبحون له الذبائح، والحجر أخضر سلقيّ. وقد سرنا بينهم خمسة وعشرين يوما في أمن ودعة...

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم: الخطلخ، فسرنا بين أهلها عشرة أيام، وهم يأكلون البُرّ وحده ويأكلون سائر اللحوم غير مذكاة. ولم أر في جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم، يتخطفون من حولهم ويتزوجون الأخوات، ولا تتزوج المرأة أكثر من زوج واحد، فإذا مات لم تتزوج بعده، ولهم رأي وتدبير، ومن زنى في بلدهم أُحرق هو والتي يزني بها، وليس لهم طلاق، والمهر جميع ما ملك الرجل، وخدمة الولي سنة، وللقتل بينهم قصاص وللجراح غرمٌ؛ فإن تلف المجروح بعد أن يأخذ الغرم بطل دمه، وملكهم ينكر الشر ولا يتزوج، فإن تزوج قتل"(٢١).

---

(٢١) معجم البلدان، ص٤٤١-٤٤٣ .

الصورة المركّبة التي قدّمها أبو دلف تلفت النظر إلى وجود أمم من الأتراك الذين يمر بهم رحّالتنا في مهمته إلى الصين، لها طرز خاصة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بما في ذلك المنظومات العقدية، بعضها وثني يعيش لحظات الحرية الأولى قبل أن تتمكّن العقائد من صوغ العلاقات في ضوء نسق عام من القيم، وبعضها أعاد تكييف العقيدة على وفق تفسير خاص به؛ فالحقيقة القابعة في دار الإسلام لم تصل إليه كاملة، فاكتفى بمظاهر مجتزأة منها، فصار أحد تقاتها إلهًا، واحتكرت السلطة السياسية في أسرة واحدة.

ليس من شك في أن ملحوظات أبي دلف على غاية من الأهمية، إنه أكثر اهتماما بهؤلاء الأقوام من غيره الذين جردوا أقواما مناظرة من كل شيء، وعلى الرغم من ذلك فمروره المتعجّل في بلادهم جعله يحكم عليهم في ضوء النسق الثقافي الذي تشبّع به.

لقد مر بنا كيف وُصف الصقالبة من قبل، وكيف أُخرجوا من الجنس البشري، والبجناك الذين يمر بهم أبو دلف يصاقبونهم، إنهم همج مثل أولئك، طوال اللحى، وإباحيون. والجكل الذين يلونَهم يبيحون سفاح المحارم، ولم يبلغوا بعد معرفة الحدود الفاصلة في العلاقات الجنسية، وهم من عبدة الكواكب، والبغراج الذين يأتون بعدهم يؤلِّهون علي بن أبي طالب، ويعتقدون بأنه إله العرب، ثم الخرلخ البغاة، الزناة، الوثنيون الذين ينحرون الأضاحي لأصنام من حجر، والذين يقامرون على نسائهم وأولادهم، والذين يفتقدون الغيرة على نسائهم، فيصاحبن من راق لهن من الرجال الغرباء. وأخيرا الخطلخ الذين يتزوجون الأخوات، لكن البأس فيهم ظاهر، ويحرقون الزناة.

إن قائمة أبي دلف مثيرة حقا، وهو يتخفف مقارنة بغيره من نبرة التحامل، لكن وصفه انتقائي، فيه درجة واضحة من التغليب، تتوارى البسالة أمام سيل جارف من المثالب التي لا تنتهي والتي تعرض كحقائق. وربما لا يرشح من سرده انتقاص مقصود، بيد أن التركيز

على العلاقات شبه الإباحية والمحرّمة بين الرجل والمرأة، وأعراف العبادة، والوثنية الظاهرة تجعل تلك الأقوام بحاجة ماسة إما لتصحيح عقائدها وأنظمتها الاجتماعية، أو لتغيير تلك العقائد والأنظمة.

بعد ذلك تزداد النبرة الغرائبية؛ فكلما نأت الأقوام عن دار الإسلام سقطت في هوة الجهل. يروي الدمشقي عن أبي عمر بن عبد البر في كتاب" القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم" أن وراء سور الصين أممًا منهم إذا طلعت الشمس يأوون إلى مغارات فلا يخرجون منها حتى تغرب، وأمة يلتحفون بشعورهم . وأمة لا شعور لهم، وأكثر ما يأكلون سمك البحر وخشاش الأرض. ويحاذيهم من ناحية الشمال أمة شقر عُراة يتناكحون كما تتناكح البهائم، تجتمع الجماعة على المرأة الواحدة. وبمشرق الأرض عند مطلع الشمس أمة متولّدة بين السباع، والناس ذوو عيون مدورة، وأنياب بارزة ممتدّة، وأذناب وأظفار معقّفة بأصابع قصار، يسكنون الجبال، طعامهم الحوت ودواب البحر، ولهم زروع ودواب يركبونها، والله أعلم"(٢٢).

أما بلاد يأجوج ومأجوج التي حيّرت الجميع، والتي لم يصل إليها - فيما يُروى - سوى سلاّم الترجمان، وترتسم صورة رهيبة لها في المدونات الجغرافية، فإن أهلها - كما يتفق الجميع - كفار من أكلة لحوم البشر، فلا يجرؤ أحد على الوصول إليها. ويأجوج ومأجوج كما يقول أبو زيد البلخي: "صنف من الناس بين الصين والترك، الغالب عليهم خفش العيون، وفطس الأنوف، وقصر القامة. جنوبهم الصين، وشمالهم الترك، ومغاربهم مشارق قشمير والتبت، فلا يدرى ما في مشارقهم، وهم أسوأ الناس عيشا، وأخبثهم طعما، وأخرقهم خرقة، وأقلهم تمييزًا وفطنة"(٢٣).

(٢٢) نخبة الدهر، ص٢٦٥-٢٦٦ .

(٢٣) أبو زيد البلخي، المسالك والممالك، (ليدن، بريل)، ص١٦٤ .

يلحظ التدرج في طبيعة الصورة التي شكّلها الجغرافيّون عن أهل الشمال، وهي تعنى بالجوانب البشرية أكثر من غيرها، وتقدم أوصافًا انتقاصية شبه ثابتة لتلك الشعوب، ويصار التركيز فيها على أساليب الحياة الاقتصادية والدينية. ويهتم الجغرافيون المسلمون بالحياة الاجتماعية، وتعدّ معظم مدوناتهم مصادر إثنوغرافية أساسية في هذا المجال.

نتائج البحث:

كشف البحث جملة من الحقائق الخاصة بأهل الشمال، كما قامت المدونات الجغرافية العربية - الإسلامية بعرضها، ومنها:

- تبدو صورة أهل الشمال غامضة بسبب الجهل بالتفاصيل الدقيقة الخاصة بحياتهم.
- تبدو ملامح الصورة التي شكلها الجغرافيون المسلمون في أذهانهم عن الممالك الشمالية مخيفة بسبب الصراع العقدي القائم بين دار الإسلام وبعض تلك الممالك.
- يتضح من ثنايا المدونات الجغرافية أن صورة الطرف الآخر ممزقة؛ فمرّة تضخّم التناقضات الداخلية فيها، ومرة أخرى تقارن بالمنظومة الثقافية للمسلمين.
- على الرغم من تجاور الوصف والحكم في أسلوب الجغرافيين المسلمين إلا أن نظرية الكيوف الطبيعية استبدت بتفكيرهم، ومعلوم أن تلك النظرية تقول بالترابط الوثيق بين الطبائع والمناخ.
- يتناغم السياق المتصاعد من الأحكام التبخيسية مع درجة البعد عن دار الإسلام؛ فالجهل يوفّر درجة عالية من الكره والبغض، ويوجه الأفكار وجهة لا تتقبّل فيها المنظومات الثقافية والقيمية للآخر.
- تتخلل كتابات الجغرافيين القدامى تناقضات غير قابلة للحلّ، إلا إذا عرفنا سرّ التأليف القديم القائم على الجمع وليس الابتكار.

- يلحظ تكرار واضح لدى الجـغـرافـيين المسلمين في إيراد بعض المعلومـات حـول أهل الشـمـال، الأمـر الذي يكشف سكون بعض المعلومات وعدم تجدّدها، وقدمـهـا، واعتمـادها على المرويات الشفوية. ومع أن كثيرًا من الرحالة كتبوا مشاهدات حية ومباشرة، فوصفهم يعدّ وصفًا من الدرجة الأولى، لكن كتب المسالك والممالك، والكتب الجغرافية الأخرى اعتمدت في بعض الأحيان على المرويات المتداولة، ولهذا يجب عدم الاطمئنان إلى المعلومات الواردة فيها.
- فيما يقدم المسعودي وصفًا وتفسيرًا لأهل الشمال، يلجأ القزويني إلى الوصف والحكم، وفي الحالتين يقوم الأمر على ثنائية تفاضلية، تجعل (الآخر) دون (الأنا) لأن المكوّن العقدي يتدخّل في نهاية الأمر ليحسم المفاضلة لصالح (الأنا) على حساب (الآخر).
- يعدّ الدمشقي مصدرًا مهمًا للغرائب والعجائب، وتنشأ الأحكام القائمة على العجيب والغريب على أسس غير موضوعية؛ فيظهر الآخر محبوسًا في سياج مغلق من القيم الناقصة.
- يمكن عد رحلة أبي دلف (مسعر بن مهلهل) - وهي رحلة مبكرة جدا، قام بها في مطلع العصر العباسي إلى الصين، واخترق خلالها شمال الأرض، ووصف الأقوام الشمالية ، وبخاصة التركية - من أهم الوثائق الغنية بالمعلومات الإثنوغرافية عن تلك المرحلة المبكرة من تاريخ بلاد الشمال.
- على الرغم من أهمية النصوص الجغرافية فقد جرى التلاعب ببعضها، ولم يكن ذلك التلاعب صادرًا عن سوء قصد، إنما جاءت الكتب الجغرافية المتأخرة، وبخاصة (معجم البلدان) فأعادت توزيع المعلومات بحسب المناطق، وهذا التقطيع للمعلومات أفقد بعضها القيمة التي تعزّز الهدف من البحث، وأقصد طبيعة الصورة المركّبة لأهل الشمال، وعلى الرغم من ذلك فما تبقّى من تلك النصوص يعدّ بذاته مصدرًا مهما لا يمكن إنكار قيمته الثقافية.